

أ.د. هدى هادي عباس

حياة جرير

ولادة جرير ونسبه

السلام عليكم أنا جريرٌ ولدتُ لسبعة أشهرٍ، نحو سنة ثلاث وثلاثين هجرية في اليمامة. في أواخر خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، قبل قيام الدولة الأموية بنحو ثماني سنوات. في بادية نجد.

وأنتمي إلى قبيلة كُليب بن يَرْبُوع، من بني تَمِيم، وهي من القبائل العربية المعروفة.

ونشأتُ في أسرة فقيرة، وعشتُ حياة البادية، وكان لهذه البيئة أثرٌ واضحٌ في شخصيتي وشِعْري

وقد ظهرت موهبتي الشعرية في سنٍّ مبكرة، حتى أصبحتُ من أشهر شعراء العصر الأموي.

أما نسبي، فأنا جرير بن عطية الخَطَفي التميمي، من بني كُليب بن يربوع من تميم.

وكُنيتي: أبو حَزْرة.

اسمه وسببُ تسميته بجرير

كلمة جَرِير في اللغة العربية تعني: الحبل المجدول.

أما سبب تسميته بهذا الاسم، فتروي بعض الأخبار أنَّ والدَةَ جرير، عندما حملت به، رأت في منامها رؤيا مفزعة؛ إذ رأت أنَّها ولدت جَرِيرًا، أي حبلًا، يلتفُّ حول أعناق كثير من الرجال فيخنقهم، وأنَّ لهذا الحبل شَعْرًا أسود.

فذهبت أمه إلى مُفسِّرٍ للأحلام، وقيل: عرَّاف، ففسَّر لها الرؤيا بأنَّها ستلد غلامًا سيكون شاعرًا عظيمًا، سليطَ اللسان، يؤذي الناس بلسانه وهجائه. ومن هنا - بحسب هذه الرواية - جاء اسم جرير.

ويرى بعض الباحثين أنَّ هذه الرواية قد تكون من صنعة الرواة وحَبْكِهم، وأنَّها وُضِعَت لتفسير تسمية الشاعر بهذا الاسم، ولربط اسمه بما عُرف عنه فيما بعد من قوة الهجاء وحِدَّة اللسان.

نَشَأُهُ الْبَدَوِيَّةُ

نَشَأَ جَرِيرٌ فِي الْيَمَامَةِ وَبَادِيَّتِهَا، وَعَمِلَ رَاعِيًا لِعَنَمِ أَبِيهِ وَجَدَّهِ، فَنَشَأَ بَدَوِيًّا فَصِيحًا مُحَافِظًا، بَعِيدًا عَنِ حَيَاةِ اللَّهْوِ وَالشَّرَابِ، وَأَقْرَبَ إِلَى التَّدْيِينِ وَالْوَقَارِ.

وَتَلَقَّنَ، إِلَى جَانِبِ مِهْنَةِ الرَّعْيِ، صَنْعَةَ الشَّعْرِ مِنْ جَدِّهِ، وَكَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَتَأَثَّرَ شَعْرُهُ بِطَائِعِ الْبَيْئَةِ الْبَدَوِيَّةِ، وَمَا فِيهَا مِنْ جَزَالَةِ اللَّغَةِ، وَقُوَّةِ التَّعْبِيرِ، وَالْاِعْتِرَازِ بِالنَّسَبِ وَالْقَبِيلَةِ.

وَقَدْ أَوْرَثَهُ جَفَاءُ الْبَيْئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ حِدَّةً فِي الْمَزَاجِ، وَخُشُونَةً فِي الْمُعَامَلَةِ، وَتَعَصُّبًا شَدِيدًا لِقَوْمِهِ، وَشِدَّةً فِي مُوَاجَهَةِ أَعْدَائِهِ؛ مِمَّا كَانَ يُسَبِّبُ لَهُ سُرْعَةَ الْانْفِعَالِ، وَالْمِيلَ إِلَى الْخُصُومَةِ وَالْمُنَازَعَةِ.

وَقَدْ ظَهَرَ أَثَرُ ذَلِكَ فِيمَا بَعْدُ فِي شِعْرِهِ، وَلَا سِيَّمَا فَنِّ الْهَجَاءِ الَّذِي بَرَعَ فِيهِ، وَأَصْبَحَ أَبْرَزَ أَسْلِحَتِهِ فِي مَعَارِكِهِ الشَّعْرِيَّةِ.

عَلَاقَتُهُ بِوَالِدِهِ وَجَدِّهِ

كَانَ وَالِدُهُ عَطِيَّةً فَقِيرًا بَسِيطَ الْحَالِ، وَقَدْ اسْتَغْلَّ خُصُومُ جَرِيرٍ، وَلَا سِيَّمَا الْفَرَزْدَقُ، هَذَا الْأَمْرَ فِي تَعْبِيرِهِ وَالطَّعْنِ فِي أَسْرَتِهِ أَثْنَاءَ مَعَارِكِ النَّقَائِضِ.

أَمَّا جَدُّهُ الْخَطْفِيُّ، فَكَانَ شَاعِرًا، وَكَانَ لَهُ أَثَرٌ فِي تَنْمِيَةِ مَوْهَبَةِ جَرِيرِ الشَّعْرِيَّةِ فِي صِغَرِهِ.

وَتَرَوِي بَعْضُ الْأَخْبَارِ أَنَّ جَرِيرًا عَاتَبَ جَدَّهُ بِسَبَبِ شِدَّةِ إِمْسَاكِهِ بِالْمَالِ، فَانْعَكَسَتْ هَذِهِ الْعَلَاقَةُ فِي بَعْضِ مَا نُسِبَ إِلَى جَرِيرٍ مِنْ شِعْرِ الْعِتَابِ إِلَى جَدِّهِ.

وَمَعَ ذَلِكَ، يَنْبَغِي التَّعَامُلُ بِحَذَرٍ مَعَ التَّفَاصِيلِ الْقَصَصِيَّةِ الَّتِي تَرْوِيهَا كُتُبُ الْأَدَبِ عَنْ عَلاَقَةِ جَرِيرٍ بِأَبِيهِ وَجَدِّهِ؛ لِأَنَّ بَعْضَهَا يَدْخُلُ فِي أَخْبَارِ الْأَدَبَاءِ وَالنَّوَائِرِ، وَلَا تَتَّفِقُ الْمَصَادِرُ فِي جَمِيعِ تَفَاصِيلِهَا.

علاقة جرير بزوجه

عندما تُوقِّيت زوجة جرير وأمُّ أولاده، رثاها بقصيدته المشهورة التي عُرِفَتْ بقصيدة "لولا الحياء"، وهي من أشهر مراثي الزوجة في الشعر العربي، وقد كشف فيها جرير عن جانب إنساني رقيق يختلف كثيرًا عن صورة الشاعر شديد الهجاء في شعر النقائض.

فيقول:

لَوْلَا الْحَيَاءُ لَهَاجَنِي اسْتِعْبَارُ

وَلَزُرْتُ قَبْرَكَ وَالْحَبِيبُ يُزَارُ

وهذه المراثية تكشف لنا عن جرير الزوج الوفي الرقيق؛ فالشاعر الذي عُرِفَ بحدَّة لسانه وقوة هجائه يتحول أمام مصيبتة الأسرية إلى إنسان منكسر أمام الفقد، تغلب عليه مشاعر الحب والوفاء والحزن.

لم يقتصر جرير في مراثيته على البكاء والحزن، بل خلَّد صفات زوجته ومحاسنها، فرسم لها صورةً تجمع بين العفة والجمال والسكينة والوقار وكرم العشرة وصيانة العرض.

عفيفة تحفظ غيبته وأسراره:

كَانَتْ إِذَا هَجَرَ الْحَلِيلُ فِرَاشَهَا

خُزْنَ الْحَدِيثُ وَعَفَّتِ الْأَسْرَارُ

فهو يمدح فيها العفة والأمانة وحفظ أسرار الحياة الزوجية، ويجعل من صيانة البيت والزوج جزءًا أصيلًا من فضائلها.

تجمع بين جمال المظهر وسكينة النفس:

وَلَقَدْ أَرَاكَ كُسِيتٍ أَجْمَلَ مَنْظَرٍ

وَمَعَ الْجَمَالِ سَكِينَةً وَوَقَّارُ

فالزوجة في ذاكرته ليست جميلة المظهر فحسب، بل يجتمع جمالها الخارجي مع السكينة والوقار، وبذلك تصبح صورتها عنده مزيجًا من جمال الخلقة وجمال الخلق.

كريمة العشير، مصونة العرض:

كَانَتْ مُكْرَمَةً الْعَشِيرِ وَلَمْ يَكُنْ

يُخْشَى غَوَائِلَ أُمِّ حَزْرَةَ جَارُ

ويقول:

وَالرَّيْحُ طَيِّبَةٌ إِذَا اسْتَقْبَلَتْهَا

وَالْعَرَضُ لَا دَنْسٌ وَلَا خَوَارُ

وبذلك تتحول المراثية من مجرد بكاء على الفقد إلى شهادة وفاء من زوج لزوجته، يستعيد فيها محاسنها ويخلد مكانتها في نفسه بعد موتها.

علاقة جرير بأبنائه؟

امتازت عاطفة جرير تجاه أبنائه بالحنان الأبوي الشديد والشعور العميق بالمسؤولية تجاههم، وازداد خوفه عليهم بعد وفاة أمهم؛ إذ لم يكن حزنه على زوجته منفصلاً عن حزنه على الأطفال الذين تركتهم وراءها.

الخوف على صغاره بعد يتيمهم

يبلغ الحزن ذروته عندما يتذكر جرير أبنائه الصغار الذين أصبحوا بلا أم، فيقول مخاطبًا زوجته:

وَلَقَدْ أَرَاكَ كُسِيتٍ أَجْمَلَ مَنْظَرٍ

وَمَعَ الْجَمَالِ سَكِينَةً وَوَقَّارُ

أما الأبيات التي تتعلق بصغاره مباشرةً، فمن المهم أن نثبت نصها من الديوان قبل إدراجها؛ لأن عددًا من الأبيات المتداولة على المواقع تُنسب إلى مرثية جرير بصيغ مختلفة.

والفكرة الأساسية في هذا الموضع أن جرير لا يرثي زوجةً فقط، وإنما يرثي أمًا تركت وراءها أبناءً يحتاجون إلى رعايتها؛ ولذلك يتضاعف حزنه: حزن الزوج على زوجته، وحزن الأب على أطفاله بعد فقد أمهم.

وهنا يظهر التناقض الجميل في شخصية جرير: ذلك الشاعر الذي كان قاسيًا على خصومه في الهجاء، يصبح داخل أسرته أبًا رقيق القلب، يخاف على أبنائه ويتألم ليُتمهم.

خوفه على صغاره بعد وفاة أمهم

يتجلّى قلق جرير على أبنائه الصغار بعد وفاة أمهم في قوله:

وَلَهْتَ قَلْبِي إِذْ عَلَّنِي كِبَرَةٌ
وَذَوُو التَّمَائِمِ مِنْ بَنِيكَ صِغَارُ

والمقصود بـ ذوي التَّمَائِمِ: الأطفال الصغار الذين كانت تُعلّق عليهم التَّمَائِمِ وفق عادةٍ كانت معروفة آنذاك. ويكشف البيت عن شدة اضطراب قلب جرير وخوفه على أبنائه؛ فقد اجتمع عليه تقدّم السن، وفقد الزوجة، وبقاء الأطفال الصغار في حاجة إلى الرعاية.

وهنا لا ينظر جرير إلى موت زوجته بوصفه فقدًا شخصيًا فحسب، بل يستشعر أثره في أبنائها، فتتداخل عاطفة الزوج المفجوع بعاطفة الأب القلق على مستقبل أولاده.

رعايته لأبنائه وامتداد الشعر في أسرته

كان لجرير عدد من الأبناء، وقد انتقلت موهبة الشعر والأدب إلى بعض ذريته، فبرز من أبنائه بلال بن جرير شاعرًا، كما اشتهر من أحفاده عُمارة بن عَقِيل، الذي عُرف بالشعر والفصاحة في العصر العباسي.

وقد لفت امتداد الشعر في ذرية جرير أنظار علماء الأدب والرواة، حتى أصبحت أسرته مثالاً على توارث الملكة الشعرية والفصاحة عبر الأجيال.

أما القول بأن جريراً كان يتعمّد تربية أبنائه جميعاً على منهج محدد في الابتعاد عن مجالس اللهو والشراب، فيحتاج إلى توثيق من المصادر القديمة قبل إثباته بهذه الصيغة؛ والأفضل في المحاضرة الاكتفاء بما تثبته أخباره وشعره من نزعة محافظة وعناية بأسرته وذريته.

جرير زوجاً وأباً

تزوّج جرير، وكانت له أسرة كبيرة، وتُنسب إليه ذرية عديدة، برز عدد منها في الأدب والشعر. أمّا تحديد زوجاته وأسماء أولاده وعددهم بثمانية ذكور وبنيتين، وكذلك تسمية زوجته المريثة خالدة بنت سعد، فمن الأفضل توثيقه من كتب التراجم والديوان قبل تقديمه للطلاب بوصفه حقيقةً قطعية.

وعلى خلاف الصورة المشهورة لجرير في معارك النقائض، شاعراً سليط اللسان شديد الهجاء، تكشف أشعاره الأسرية عن رقة إنسانية وعاطفة جياشة؛ فقد ظهر زوجاً وفيّاً شديد الحزن على زوجته، وأباً حانياً قلّقاً على أبنائه الصغار.

وهكذا يمكن القول إن شخصية جرير جمعت بين صورتين متقابلتين:قسوة الشاعر في مواجهة خصومه، ورقة الإنسان في علاقته بأسرته.

وفاة جرير

تُوفّي جرير في اليمامة، والمشهور أن وفاته كانت سنة 110هـ/728م، بعد حياة طويلة أمضاها بين البادية ومجالس الخلفاء ومعارك الشعر والنقائض. وقد بلغ من العمر نحو ثمانين سنة أو جاوزها على اختلاف الروايات.

ومن الطريف أن كتب التراجم والأدب أوردت حكايةً مناميةً متصلة بوفاته، وهي تُذكر بوصفها طُرفة أدبية لا خبراً يُبنى عليه حكم ديني.

حكاية منامية أدبية

رأى رجلٌ جريراً في المنام، فسأله:

الرجل: ما فعل الله بك؟

فقال جرير:

غفر لي بسبب تكبيرةٍ كَبَّرْتُها في البادية.

ثم سأله:

الرجل: وما فعل الفرزدق؟

فأجابه جرير:

"هيهات، أهلكه قذفُ المحصنات".

ثم حُكي ذلك للأصمعي، فقال تعليقاً طريفاً:

"لم يدَعُه في الحياة ولا في الممات".

أي: إن جريراً - حتى في هذه الحكاية المنامية - لم يترك خصمه الفرزدق من هجائه بعد الموت، كما لم يتركه في حياته.

وهكذا ختم الرواة قصة الخصومة الطويلة بين جرير والفرزدق بطرفة أدبية تتناسب مع ما عُرف عنهما من النقائض والهجاء المتبادل طوال حياتهما.

تنبيه: هذه رواية منامية أدبية أوردتها كتب التراجم، وليست حقيقة تاريخية أو دينية يُحكم بها على مصير جرير أو الفرزدق في الآخرة.